الاجسام وقال ان في دقائق الهواء التي في غرفة طولها ٣٣ قدماً وعرضها ١٨ قدماً وعلوها ١٢ قدماً من القوة الفعلية ما يدير آلة بقوة حصان اكثر من اثنتي عشرة ساعة وهذه القوة العظيمة تنتظر سحر العلم لتخضع للانسان

ثم تكلم عن بعض مباحثه الخاصة في الحل الطيفي واكتشاف العناصر الجديدة بهِ وستطرد الى مباحثه النفسية فانهُ من العلماء الذين يعتقدون ان نفوس الموتى تبقى حول الاحياء وسنعرّب ذلك في الجزء التالي لقراءته

المعابد والمذابح والصلاة والصوم

وآراء الاولين فيها

مقتطفة من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في اصول علم السيولوجيا بقلم نسيم افندي برباري

« تابع ما قبلهُ »

لقدم معنا ان الضحايا البشرية كانت تقدم في الأمم طعاماً للموتى وخدمةً لارواحهم في العالم الثاني . والاول ناشئ من اعتقاد المتوحشين بمشابهة الحياة العتيدة للحياة الدنيا وذلك يستدعي تقديم الذبائح البشرية عند آكلي لحوم البشر . ذكر احد السيّاح عن اهالي جزائر ساموى انهم يزعمون ان الههم « ساما » تجسّد وكان يحب اللحوم البشرية فكانوا يقدمونها لهُ كلما طلبها ولا يزال يحبها الى الآن . ويقول اهالي فيجي ان زعماءهم يذهبون بعد الموت الى الآلهة التي تحب اللحوم البشرية ولذلك يدفنون معهم الاسرى . اي ان الانسان كان يتقرّب ويؤكل لحمهُ ثم صار بعضهم للارواح ثم للآلهة . وبعد ان كان ذلك عادة بسيطة صار فريضة دينية . ويؤيد ذلك ما رواهُ السياح عن اهالي المكسيك وبعض قبائل اواسط اسيا وجزائر المحيط وغيرهم من الذين يقدمون الضحايا البشرية لآلهتهم دلالة على انهم كانوا يأكلونها اولاً ثم يطلقون اكلها وظلوا يضحونها لآلهتهم وما آلهتهم سوى ارواح زعمائهم الذين كانوا يتقربون لحوم اسراهم وهم في قيد الحياة . وقس على ذلك تضحية الخدم على قبور مواليهم والنساء على قبور ازواجهنّ ارضاء لارواح الموتى فانها استحالت الى صورة دينية وكان لها شأن عظيم في الديانات الاولى

وقد رأينا في الكلام عن الموت والقيامة ان بعض الاقوام يقدمون الدم تقدمةً لمرتاهم وليس لهذه التقدمة معنى ظاهر الاّ عند مقابلتها بما يفعلهُ اكثر الامم البشرية . وبعض المتوحشين يأكلون لحوم اعدائهم نيةً قصد الانتقام منهم واذا نزل الوحي على اطبائهم هاموا على

وجوههم وصاروا كلما رأوا رجلاً يقضمون من لحمه ما يتيسر لهم. فان كان هذا شأنه لا يستبعد عليه شرب الدماء . ومن المحتمل ان ما في احاديث عامة المتمدنين عن حيوان يمتص دم الناس قد نشأ من هذه العادات لان معنى هذا الحيوان اصلاً روح ترجع الى العالم السفلي من الدماء البشرية. ولا بدمن ان تضحية الدم بمثابة تقديم شراب للميت وبما ان الفرق بين اكل لحم الحيوان ولحم الانسان ليس باعظم من الفرق بين شرب دميهما فلا عجب اذا وصف عولس آلهة اليونان بانها كانت تتهافت على شرب دم الذبائح التي قدّمها لها وتُسَرّ بها . ولما كان سفك الدم في لمّ اصلاً ارواء لظماء الارواح وكان سفكهُ يُعيد ذلك استرضاء لها ثبت معنا ان سفكهُ على هذه الصورة هو اصل عادة تقديم ضحية للآلهة . ويتضح ذلك جلياً مما ورد عن اهالي المكسيك فان اشرافهم كانوا سلالة قوم يأكلون اللحوم البشرية وكانت آلهتهم تلذ بتلك اللحوم واذا تأخروا عن تقديمها لما كانت الكهنة توّبخهم على ذلك فيصلون حيرانهم الحرب ويضحون من يقع في يدهم من الاسرى . وبعض الهنود يجرحون انفسهم امام الآلهة لتسيل دماؤهم وقد كان ذلك شائعاً في المشرق ونهى اليهود عنهُ صريحاً في شريعة موسى . وقد ورد في التوراة ان كهنة بعل " تقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم "

ثم أكتفي بعض الناس بتضحية عضو من الجسد او من زوائده وكما رأيت في الكلام على الموت والقيامة. من ذلك ما ورد عن نساء بعض سكان اميركا الشمالية الاصليين وهو انهنّ يقطعنّ عقدة من احدى اصابعهنّ عند وفاة قريب . وكان لبعض قبائل اميركا عادة انهُ اذا توفي رئيسها تقدمت اشجع امرأة في القبيلة الى خلف الرئيس المتوفى وقطع كل منهما قطعة من لحم الآخر ورماها في النار . ويشبه ذلك عادة نزع الاسنان من افواه الصغار عند اهالي بيرو اعتقاداً ان الاسنان تقدمة مقبولة للآلهة . وكان اهالي جزائر صندويج ينزعون بعض اسنانهم عند وفاة احد زعمائهم. وقص الشعر الذي اشير اليه كاحدى عادات الحداد هو فريضة دينية ايضاً . يروى انهُ ثار بركان مرةً في جزائر صندويج ولما لم تهدأ الذبائح للآلهة شيئاً في ايقاف ثورانه قص الملك ضفيرةً من شعره وكانوا يعتبرونهُ مقدساً ورماها في مجرى احد الذائبة . وكان اهل بيرو اذا قدموا تقدمة نزع كل منهم شعرة من حاجبيه . ومن عوائد اليونانيين القدماء وقت الزواج أن العروس كانت تقدم ضفيرة من شعرها الى الزهرة

فما تقدّم تظهر المشابهة بين عادات الحداد والفروض الدينية في تقديم الضحايا البشرية والدم البشري كالشعر وما اشبه

ولقد بحث الاولون عما اذا كانت توجد واسطة اخرى غير التقدمات لارضاء الارواح

لانها تنفع وتضر ولذلك يلزم استرضاؤها بما في الامكان . ولما كانت تُسرّ بالمدح وهي في قيد الحياة كان اول ما يخطر على بال الاولين والمتوحشين استرضاؤها بالمدح ثانية لارتياحها اليه. ذكر احد السيّاح انهُ رأى هنديًّا من هنود اميركا الشمالية يحمل جثة امرأته الى القبر وهو يعدد مناقبها الحسان وحولهُ بعض رجال قبيلته يرددون اقوالهُ . وذكر السائح سوتي ان قبيلة التوبس في البرازيل تتغنّى في الجنازات بمدح الميت . وعند وفاة احد سكان كاليفورنيا الاصليين يغني الكاهن اغنية بمدحهِ . وبعضهم ينصب على الميت عمودًا وينقش عليهِ عدد الحروب التي حاربها والجروح التي اصابتهُ كأن هذا العمود مديح دائم لنفس الميت تراهُ منقوشًا امامها دائمًا . ومن قبائل اميركا من يترنم بمدح الميت واسلافهِ مدة اربعة ايام واربع ليالٍ . وامثال ذلك كثيرة في جزائر المحيط والفريقية وغيرها فقد كان المصريون القدماء يستأجرون النوادب لتعداد مناقب الميت وعند دفن احد اشرافهم يقرأ الكاهن درجًا من البردي فيهِ وصف اعمال الميت الصالحة والناس يؤمّنون على ما يقرأهُ

ولا ينتهي مدح الموتى بدفنهم فان هنود البرازيل يمدحون موتاهم كما مروا بمدفنهم واهالي بيرو كانوا يترنمون بمدح رؤسائهم يوميًّا مدة الشهر الاول بعد وفاتهم ثم كل اسبوعين مرة الى نهاية السنة . والامازولو في جنوبي افريقية يمدحون موتاهم استجلابًا لنفعهم او درءًا لضرهم فاذا تنشت بينهم الامراض ترمّ الابن الاكبر بمدح والدهِ وبالالقاب التي نالها في حروبهِ ومدح اسلافهُ ايضًا . وهم يفصلون بعض الارواح على بعض ويجعلونها على الكافة فاذا قال العرّاف ان احدها كان سبب المرض المتفشي وُجّهت المدائح كلها اليهِ

وواضح مما تقدم ان مدح الميت الذي كان يتلى عادةً في المأتم صار يتلى في اوقات معينة بعدها ثم صار اشبه بفرض ديني . وهذا الفرض الديني والمديح متشابهان بكونهما لازمين للكائنات التي وراء الطبيعة وبانهما تذكار لاعمال مجيدة وبان الغرض منهما اما جلب النفع او دفع الضرّ

وهناك طريقة اخرى لاسترضاء الارواح عدا المدح وهي الصلاة . روي عن اهالي اواسط افريقية انهم يذهبون في اوقات الشدائد الى الغابات ويضرعون الى ارواح موتاهم . والامازولو يجمعون بين الصلاة والتقدمة وذلك ان صاحب المعجل المعد صحيحًا يصلي الى ارواح اسلافهِ ويقول لها هذا تجلتك ايتها الارواح ثم يذكر اسماء اجدادهِ وجداتهِ ويقول لهم خذوا طعامكم واسقوني صحةً جيدةً لكي اعيش براحة وانت يا فلان عاملني بالرحمة ويا فلان عاملني بكذا وكذا . والشيدة يعتقدون ان ارواح اسلافهم واولادهم تحميهم فيصلّون اليها

كلما اصابتهم مصيبة . واذا ذهب احد اهالي داكوتا في اميركا الجنوبية الى الصيد دعا ارواح اسلافه لكي ترشده الى صيد وافر

والاختلاف بين صلوات المتمدنين وصلوات المتوحشين قائم في ماهية الارواح التي تُقدَّم الصلوات اليها . فقد جاء في اشعار هوميروس ان كاهن ابولو كان يخاطبه قائلاً : " يا سمنثيوس اذا كنت قد سررت بالهيكل الذي بنيته لك واحراق العجول والماعز السمينة التي قدمتها اليك فاجعل اهل الدنون يعطوني سهامهم بدلاً من دموعي . " وقد نادى رعمسيس معبوده آمون لمساعدته في الحرب وذكَّره بالثلاثين الف عجل التي قدمها اليه . ومعزى هذه الشواهد واحد وهي مساومة الاخذ والعطاء التي جرى عليها الناس مع معبوداتهم فانهم يطلبون منها المساعدة مقابل القرابين التي يقدمونها اليها

وبقية اوجه الشبه بين عادات الحداد والفروض الدينية عديدة . نذكر بعضها بالاختصار

يعتقد اهالي شرقي افريقية ان ارواح الموتى تعرف كلما هو جارٍ في العالم فتُسر بالخير وتستاء من الشر . واذا مات احد هنود اميركا الشمالية وعده رفاقه ان يعيشوا عيشة صالحة بعده كأنهم يخافون من توبيخه لهم . وذكر الرحالة فيبري ان اعظم قصاص عند التركمان هو شكايتهم الى اسلافهم وذلك بنصب رمح على قبر الميت . قال سرق احدهم فرساً ولما رأى رمحاً نصب على قبر جدوردَّ الفرس الى صاحبه تحت جنح الدجى . ثم حكى قصته لاحد السيَّاح واتبعها بقوله ان ردَّ الفرس قد فاظني كثيراً ولكن الافضل للانسان ان يموت من ان يزعج اسلافه

ومن عادات الاوكوى في اميركا الشمالية انهم يتلون شرائعهم القديمة وقت الجنازة . وقد شاعت اضاءة الانوار على قبور الموتى كما شاعت اضاءتها في الهياكل

واظهار الحزن الشديد وهو امر طبيعي في المآتم صار فرضاً مقرراً حتى كانوا يستأجرون لهُ النائحات والنوادب . وكان النواح عند المصريين فرضاً دينياً كما يظهر من تقديمهم باكورة الاثمار على مذبح ايسس بمناحة عظيمة ومن احتفالهم بعيد اوزيرس وهلمَّ جرًّا

وكما يمتنع المتوحشون عن الاباحة باسمائهم مخافة ان يستعملها اعداؤهم لضررهم يمتنعون ايضاً عن الاباحة باسماء موتاهم لهذا السبب عينهِ ومخافة اغضابهم حتى يُعَدُّ بعضهم ذكر اسماء الموتى جناية . وكثيرون من الامم المتمدنة كالصينيين والمصريين القدماء كانوا يحظرون ذكر اسماء آلهتهم

ويعتبر بعض الاقوام المدافن مكاناً مقدساً حتى اذا التجأ فيها عدوان تصالحا كما تعتبر اماكن العبادة وتحسب حرماً اذا هرب اليها عبد تحرَّر من سيده

وبعض المتوحشين يقسمون الاقسام واضعين ايديهم على قبر رجل اشتهر بالصلاح والتقوى

ويذكرون اسمهُ في القسم كما يقسم المتعبدون على قبور الاولياء والشهداء

ويذهب المتوحشون الى قبور اسلافهم او زعمائهم لتقديم الاطعمة لهم وتطلب معونتهم في اوقات الضيق والشدة كما يذهب المتعبدون الى قبور اوليائهم وشهدائهم لهذا الغرض نفسهِ

وخلاصة ما تقدم ان اماكن دفن الموتى سواء كانت بيوتاً او كهوفاً قد استحالت الى معابد وان قبورهم او الدكك التي كانت توضع عليها القرابين صارت مذابح . والاطعمة التي كانت تقدم لارواح الموتى صارت ذبائح للآلهة . وسفك الدم وقص الشعر ونحو ذلك مما كان يجري عادة في المآتم اكراماً لروح الميت صار فريضة دينية علامة الخضوع للآلهة . والصوم وهو اصلاً من عادات الحداد صار فريضة دينية ومدح الموتى والصلاة الى ارواحهم استحالا الى صلوات للآلهة وتسابيح لها . وقس على ذلك استرضاء الارواح والآلهة بالقرابين والذبائح والتوبة وتلاوة وصايا السلف وقت الجنازة واشعال الانوار في القبور والهياكل والقسم بارواح السلف والاولياء وزيارة قبورهم وكتم اسمائهم وكل ذلك يثبت استحالة عوائد الحداد الى عوائد دينية وسببهُ ما ذكرناهُ في الكلام عن العرافة والسحر والتقسيم وهو انهُ اذا كانت الارواح تضر اعداءها وتنفع اصدقاءها رأى الانسان ان يترضاها ويعيش معها بسلام استدراراً لخيرها ودفعاً لضررها

تعقيب على سبنسر

[المقتطف] لا نظن ان احداً من قرَّاء المقتطف طالع كتب الفيلسوف هربرت سبنسر او الفصول المختصرة التي نشرناها منها الاَّ وعجب من سعة اطلاعهِ ودقة بحثهِ وبلوغهِ في الاستقراء حدًّا تظهر فيهِ النتائج مجسمةً للعيان ونرى كل شيء يتحلل من شوائب الشك وتناقض الاركان . فالشواهد كثيرة ودلالتها واضحة وكأن فيها نوراً مستطيراً ينبسط على الغوامض فيجلوها ويتطرَّق الى الاسرار فيفشيها فيقف المرء وهو يقول في نفسهِ اذ كل ما نسبهُ الى الوحي والالهام اعمال تدرَّج الناس اليها من تلقاء انفسهم وعادات رسخت في نفوسهم بعد ان نشأت بينهم نشوءاً طبيعياً . ولا نخفي على القراء ان هذا هو مآل الفلسفة السبنسرية فانهُ كما قام ليل الجيولوجي واقام الادلة على ان ما في الارض من الجبال والوهاد والسهول والانجاد والانهار والغدران والبحور والخلجان نتائج طبيعية نتجت عن فواعل طبيعية لا تزال تفعل اليوم وتغير وجه الارض كما فعلت امس وما قبلهُ . وكما قام داروين واقام الادلة على ان كل اجناس الحيوان والنبات وما فيها من الاختلاف الظاهر انما حدثت باسباب طبيعية فعلت بها مدة الوف كثيرة من السنين ولا تزال تفعل حتى الآن وتغير الاجناس والانواع كذلك قام سبنسر واقام الادلة

على ان ما يرى في احوال البشر من العادات والعبادات انما هو نتائج طبيعية التقت الفواعل الطبيعية على ما رأيت في الفصول السالفة

لكنَّ العقول التي اعتادت الشك في المسلَّمات واختبرت خطاء الاستقراء في امور كثيرة تقف وقفة المرتاب كما اراد هؤلاء انتهاء الاطلاق والتعميم. فعقل مثل عقل دوصن الجيولوجي الاميركي لا يسلم بكل نتائج ليل . وعقل مثل ولس الطبيعي لا يسلم بكل نتائج داروين ولو كان نسيجَ وحدهِ في مذهب النشوء واطلاقه على الحيوانات . وتوجد عقول كثيرة تقف وقفة المرتاب كما اراد سبنسر الإطلاق والتعميم وناقشهُ الحساب ولا تسلم بنفي الوحي والالهام وارشادهما الناس في العبادات واليك مثلاً يتضح منهُ المراد

ينبت في الاراضي التي تروى ولا تزرع نبات صغير من فصيلة الحنطة ساقهُ كساق الحنطة ولكنها قصيرة لا تبلغ قدرَ وورقهُ كورق الحنطة ولكنهُ صغير لا يبلغ اصبعاً وسنابلهُ كسنابل الحنطة ولكنها دقيقة دميمة الحب . ولنفرض ان رجلاً رأى هذا النبات سنةً بعد أخرى وعلم ان الرياح تذري بزورهُ وتلقيها في الارض فتنبت من نفسها بلا زرع ولا حرث ثم لنفرض انهُ جاء القطر المصري ورأى حقول الحنطة يانعةً وسنابلها قد افركت ولم يكن قد رأى الحنطة قبلاً ولا رأى انساناً يحرث الارض ويزرعها فاستنتج ان هذه الحنطة مثل ذلك النبات الذي كان يشاهدهُ قبلاً وان الرياح تذري بزورها وتزرعها في الارض فتنمو فيها من نفسها وانها بلغت هذا الحد من النمو لاسباب طبيعية محضة . فهل يصحُّ عندئذٍ استنتاجهُ ونحن نعلم ان الحنطة لم تبلغ هذا المبلغ من النمو والجودة بالاسباب الطبيعية وحدها بل بارادة الانسان وبعقله الذي تسلَّط على القوى الطبيعية وتصرَّف فيها مدَّة قرون كثيرة وهو ينتقي البذار ويحرث الارض ويرويها ويزرع الحنطة في اصلح الاوقات لزرعها الى ان بلغت ما بلغت . وعلى هذا النمط يصحُّ ان يستثنى الانسان في ارتقاء عقلهِ او عقلهِ وجسدهِ معاً من الارتقاء الطبيعي العام الشامل لانواع النبات والحيوان ويصحُّ ايضاً ان تستثنى بعض طوائفهِ في ارتقاء عاداتها واخلاقها من الارتقاء العام الذي جرت عليهِ طوائف الناس وان يسبب ذلك كلهُ الى عقل مدبر يستخدم القوى الطبيعية في انماء عقل الانسان واخلاقهِ كما يستعملها الزارع في انماء الحنطة وترقيتها . ومعلوم انا لم نخرج الحنطة عن حكم النبات المشابه لها الاَّ لاننا علمنا بوجود قوة اخرى تعمل في زرعها وخدمتها وترقيتها وكذلك اخراج الانسان من حكم الحيوانات في خلقهِ واخراج بعض طوائفهِ من حكم الطوائف الاخرى في عاداتهِ واخلاقهِ ودياناتهِ لا يكون الاَّ بعد العلم بوجود قوة تعمل بهِ فعلاً خاصاً وهذا من المطالب

التي يشتها علماء الاديان وليس هنا محل البحث فيها

والخلاصة ان اطلاق سبنسر لاحكامه تحكُّم لا موجب لهُ وقياس لا يخلو من الشك وان الذين عندهم ادلة لتنعهم باخلاق المستقل وبان الله سبحانهُ اوحى الى عبادهِ وعلَّمهم طرق عبادتهِ لا يخالفون حكم العقل اذا انكروا نتائج مبسر وقضوا بفسادها

المقالات العلمية

مهما بذلنا من الجهد في انشاء المقتطف وجمع الحقائق التي نبني عليها مقالاتهِ لا نبلغ مبلغ الاوربيين والاميركيين اصحاب الجرائد العلمية التي من بابهِ لان المحررين منهم يستعين بجم غفير من العلماء الباحثين المدققين فيشقُّ كلٌّ منهم المقالات السابغة في الموضوع الذي اختصَّ بهِ ولا يبقى على المحرر الاَّ تنسيقها وكتابة بعض البذ والاخبار. ومع ذلك ترى المحررين ينتظرون الشهر بعد الشهر حتى يجتمع لهم ما يلتقطونهُ من الخطب وينشرونها في جرائدهم. ولا تكاد تُلقى خطبة علمية في نادٍ من نوادي العلم حتى تنشر في بضع جرائد في يوم واحد من جريدة الشمس السياسية الى جريدة فانشر العلمية. ومثل ذلك ينتشر العلم في البلاد وتعمُّ فوائدهُ. واذا بحثت عن الاسباب التي رقَّت الشعوب الاوربية رأيتها كثيرة ورأيت نشر المعارف العلمية على هذا الاسلوب من اقواها كلها. ويعترض على الخطب والمقالات العلمية ان المطَّلع عليها لا يجد فيها من اللذة ما يجدهُ في المقالات الادبية والقصص الفكاهية ولكن اللذة والفائدة لا تجتمعان في كل شيء واللذة وقتية زائلة والفائدة دائمة ثابتة تعود على الفرد وعلى الامة وتنتقل نفعها من السلف الى الخلف. والفوائد العلمية قد يتعبُ الدماغ في ادراكها ولكن تعبهُ يؤدي الى القوة العقلية كما ان رياضة البدن تؤدي الى القوة البدنية ولاسيما اذا كان القرَّاء لا يشتغلون الاشغال العقلية كما هو جمهورهم

وكنا فرغ شهر وهلَّ آخر واخذنا نفكر في اختيار المواضيع للمقتطف تجاذبنا عاملان قويان الواحد يدعونا الى نشر المقالات العلميَّة ولو عزَّ نهمها على جمهور كبير من القرَّاء لعلمنا ان فوائدها دائمة لهم ولان البلاد في اشد الحاجة اليها لان ليس فيها مجلةٌ علميَّة محضة ولا من يعتني بنشر الكتب العلميَّة. والثاني يدعونا الى نشر المقالات الادبيَّة والفكاهيَّة لعلمنا ان الجمهور اليها اميل وفيها ارغب ويسهل فهمها فيروج المقتطف بها كما تروج الجرائد الادبيَّة. ولا تخلو المقالات الادبيَّة والقصص الفكاهيَّة من الفوائد لكن فوائدها لا تقاس بفوائد المقالات العلميَّة